(1)

أبيع ذكرياتي

اخترقت السوق دون أن أحس بالناس والحركة كان الثوب الأبيض مضجعا علي ذراعي كجثة خمدت فيها الروح منذ لحظات وكنت قد خلفت ورائي غرفة صغيرة تصفر فيه الريح،
و أمرأه قد أحمرت عيناها من الدموع ومعدة فارغة لم تستقبل طعاماً قط منذ يومين .
قيل لي منذ مده طويلة، شهرين أو أكثر :
أذهب الي سوق الاشياء القديمة ولم اكن لا أظن قط بأنني سآلف هذا السوق مع الزمن و أن زيارتي له ستتكر بهذا القدر . كنت أحسب، ان أزمة صغيرة قد حلت بي وان الأيام القادمة، ستظهر لي وجهها الربيعي الفاتن فتورق الأغصان الجافة وتزهر،
وتشبع المعدتان اللتان يمضغان في الليل أسى وفي كثير من الأحيان وعداً غامضاً لا أدري من أين ورثته، بأن الفرج قريب، ولكن الأيام لم تضحك لي قط، فلم تورق الأغصان وظلت قدما الشتاء عالقين بأرض غرفتي، بقلبي وقلب زوجتي وظللت أمد يدي، بين حين وآخر، الى أشيائنا العزيزة علينا، احملها كمن يحمل جثث أصدقاء له ماتوا وأذهب بها الى هذا السوق الذي يلتهم كل شئ، لا يرد ميتاً على الأطلاق،
وإنما يدفع فيه ثمنا بخساً، قد يشبع المعدة الفارغة الي حين.
ولم انتبه الي ما في السوق من حركة مألوفة فيه، فقد كان الثوب الذي أحمل .. أعز الأشياء الي قلب زوجتي التي تعيش في قسمات وجهها مأسي تتضخم شيئاً فشيئاً، ثم تخرج ثورة من الدموع، لقد ذهلت اذ رأتني اتناول ثوب زفافها الابيض وراحت تتابع يدي وأنا

أطويه، في فزع مقبض وخيل ألي أن ذكريات زواجنا الممتعة قد وثبت فجأة الي عينيها، كما وثبت الى عيني وأنها تخاف أن تمحى هكذا الي الابد صِلاتها بالماضي السعيد وأن تضيع في زحمة الذكريات البائسة التي باتت تطاردنا .

لقد عاصر هذا الثوب أيام متعتنا وقت كنت أعمل وظل عزاءنا زمنا طويلا ، سنه، سنتين، فهل سيختفي هو أيضا

كالأشياء الاخرى ويضيع كما يضيع صوت حنجرة كفت عن الغناء فجأه؟

وراحت تبكي : أرسلت دموعاً عزيرة دون أن تقول شيئاً، فقد أعتادت أن تسكت كلما سلبت حاجة من حاجاتها ولم اتفوه، أنا بدوري بكلمة عزاء واحدة ، سكت، ورحت أرمق القسمات المكفهرة من الحسرة، ثم نزلت متخاذلاً ..

أحمل علي زراعي الجثة البيضاء وفي صدري رغبة مكبوتة بأن أصيح في وجه هذه القوة المجهولة التي تمنع عنا اللقمة والزاد وتحاربنا في أعز ما نملك في ذكرياتنا الحلوة، نُميتها، ونغيبها في أعماق النسيان.

كانت الملابس المدلاة أمام المحال في السوق تصطدم بوجهي وتحمل الي انفي رائحة النفتلين ولست أدري لماذا شعرت وقتئذ بشيء من الخوف و التردد، لقد خيل ألي أنني أتجول في مقبرة وأن كل هذه الأشياء والملابس المعروضة أمام عيني .. تخص أناساً من لحم ودم، مثلي ومثل زوجتي استعملوها ولبسوها مدداً مختلفة من الزمن، حتي أصبحت عزيزة عليهم، قطعة من حياتهم وذكرياتهم، ثم انتزعت منهم لسبب من الأسباب وبيعت في هذا السوق الذي يبتلع الذكريات، وصار أصحابها القدامى أمواتاً في نظر أصحابها الجدد وحدثت نفسي بأن أعود أرد الي المسكينة التي تبكي ثوب زفافها الأبيض واجلس ماداً يدي نحو السماء .

كان السوق مزدحما وكان الجو ثقيل الوطأة كئيبا وعلى الوجوه حزن مشترك غامض، شارك في تضخيمه ألواح صدئه وضعت في سقف السوق جعلته مظلماً تضيئه في غير انتظام حزم ضوء هاربة من الشمس تشق لنفسها في العتمة دروباً ملأى بذرات الغبار، علي ان الناس لم يعبأوا كالعادة، بكل هذا وانما كانوا ينقلون اقدامهم بين المحال المتخومة حتي منافذها بالأشياء والملابس القديمة، او بين بعض النساء وقد جلسن علي الأرض ووضعن أمامهن أكواما من القمصان

والاثواب، يبعن ويشترين

واحياناً يتسلين بالخناق مع بعضهن علي زبون يتيم، يزور السوق في يوم كساد.

وفتحت عيون السماسرة التي تشبه عيون البوم احداقها، وراحت تلاحق الثوب الممدد على ذراعي، تعاينه في حذق،

وحاول سمسار متحذلق ان يستدرجني الي دكان عميل له، فصددته وتابعت سيري الى اعماق السوق حيث تغوص الأشياء العزيزة في أحشاء حوانيت كثيرة كأفواه التماسيح .

ووقفت امام احد المحال التي اعتدت ان امولها بالأشياء التي أبيعها وقدمت لصاحبه ابو محمد الثوب الابيض وسألته هل جاءت المرأة حسب الموعد يا أبو محمد كنت وقتئذ، اعاني من حسرة صغيرة شبيهه بتأنيب الضمير، فرشت ظللاً مقيتا علي الموقف كله وجعلتني انتفض أمام البائع، فلقد خيل الي انني أبيع ذكريات سعيدة ..

مقابل حفنه من الجنيهات، سأشتري بها أياما آخري من أيام الشبع التي باتت عزيزة المنال ومع ان وجهي قد اكتسى بذل تلك اللحظات الا أن الرجل لم يبد عليه انه لاحظ شيئا، كان يعاين الثوب بعيني صقر مدرب، ويهمهم كلما اكتشف فيه ميزة جديدة

وقال لي منحيا اعجابه :

لن تأتي قبل بضع دقائق أخري، استرح وقرب فمه من وجهي ، وقال بلهجة تاجر خبير :
هل تعرف؟ الثوب جميل وجديد، وحرام ان يباع وهززت رأسي في أسي ولم أجبه وحين لمس في هذا الزهد بالكلام، قال بلا مقدمات سأخذ خمسة بالمئة كالعادة .
من وقت ليس بالقصير قبل أن تأتي هذه المرأة التي حدثني عنها ابو محمد لقد كانت تريد أن توفر لابنتها عرساً كبيراً تحسدها عليه البنات وكانت امنيتها الكبرى أن تري ابنتها في ثوب العرس الابيض الطويل الا ان ضآلة المهر وضيق ذات اليد لم يمكنها من شراء الثوب المطلوب الغالي الثمن، فأرتأت ان تشتري ثوبا مستعملاً من سوق الملابس المستعملة ولجأت الي ابو محمد ليتصيد لها واحداً رخيصاً وجيداً .
و عندما رأيت المرأة مسح حزني احساس مرضي بأنني سأتحرر مادامت قد جاءت من وطأه هذا الموقف المعقد الذي يثيره في اضجاع الثوب هكذا علي ارض الدكان منتظراً ان يباع كأية سلعة اخرى وهو الذي يحمل آلاف الذكريات الصغيرة الجميلة ، وأنني سأحمل الي البيت مالا وشبعاً مؤقتاً وشيئاً من الأسى المر،
تتبادله عيناي وعين زوجتي فتره، ثم تنساه العيون الاربع، وتمضي الي الاهتمام بشقائها اليومي المألوف .
راحت المرأة تحسس الثوب في إعجاب واضح كانت اساريرها تتهلل بشراً حقيقيا ولقد خيل إلي انها علي اشد ما تكون الأن، شوقاً الي رؤية أبنتها عروساً تزف بالثوب الأبيض الطويل كما كانت تتمني دائماً .. حين قالت :
كأنه فصل من أجل مريم .
وملأ وجهها بشر جديد ولست ادري لماذا انتقلت إلي عدوى الفرح فجأه انا السابح في بحيرة حزن قاتمه، فاذا بي اشاركها حبورها هذا

كأنني لا أحمل علي كتفي مأساة المرأة التي احبها والتي خلفتها في البيت تبكي الثوب نفسه .
وقالت المرأة :
- كم الثمن يا أبو محمد؟ انت تعرف حالي قل كلمة واحدة ونظر ابو محمد إلي وقال :
مائه وخمسون جنيها، يا بلاش
قالت المرأة وقد غشيتها، بسرعه مسحه أسفة ظاهرة
غالي هكذا يا أبو محمد، الله وحده يعلم كيف دبرت المبلغ ..
وحين هممت بالتدخل، نظر إلي ابو محمد نظرة ذكرني فيها بجهلي .. بقواعد البيع والشراء، وقال : الثوب جيد كما ترين ..
والمبلغ صغير ولولا حاجه الأخ لما باعه بهذا الثمن
وقالت :
هذا ما يجعلني اتحمس لشرائه . البنت يتيمه الاب ما لها أحد غير الله وغيري .
وقد ألمني يا ابو محمد أن يتم فرحها دون ان تقتني ثوب لزفافها وتظهر به أمام الناس مثل كل خلق الله من البنات اللواتي يتزوجن ولكن .. يظهر انه ليس لها نصيب.
كانت المرأة تتكلم برنة أخلاص
ولقد تهيأت لدي قناعة كبيرة بأنها لم تكن تكذب وان مأساة من نوع آخر ستعيش في قسمات تلك الفتاة المقبلة علي الحياة. ان لم تقتني ثوبا للزفاف فاتتبختر به أمام المدعوات .. وهن يغنين لها فرحات.
وقدرت أي حزن بالغ ، يعتصر أفئدة الجميع وقتئذ واي عرس مثقل بالأسى سيكون ..
وسألها ابو محمد :
النهاية؟ كم تدفعين في هذا الثوب الجديد؟
قالت : مائه جنيها وليس لدي غيرها

فقال ابو محمد : ما تزال بعيده جداً يا ست ..
وبدأ وجه المرأة في تلك اللحظة، كاسفا مليئاً بالخيبة وكانت عيناها تحدقان في الثوب في لوعه، كأنها تستنكر منذ الان، ان يكون علي جسد غير جسد ابنتها العروس التي ستزف بعد يومين ولم تدر ما تقول قد بدت عاجزة عن أن تخرج كلمة أخرى، ستمضي الان الي البيت وسيظل الثوب ملقي كجثة وستزف الفتاة بلا ثوب زفاف ابيض طويل ولن تطوف بها المدعوات ولمحت بريقا في عينها وخيل لي إنها تبكي .
وخلفتنا فجأة في صمت مفجع، ومشت ولسبب غامض، لا أدركه الآن، بدوت حريصا علي ان يكون الثوب لهذه الفتاة القابعة الان في المنزل تنتظر ذراعي امها وهي تحملان لها الثوب الابيض شعار حياتها الجديدة الحلوة .
لم اكن تحت تأثير شفقة عابرة فقط وانما كنت عرضه، طوال ثوان لهجوم شعور حزين غير محدود، خيم علي صدري
وراح يجعلني اتصور كيف تكون حال الأم العائدة الان الي البيت بذراعين فارغتين وحال الفتاة التي تريد ان تبدأ حياتها الجديدة بلا عقبات. وصرخت بالمرأة : تعالي ..
ودفعت الثوب في وجهها دون ان اقول كلمة واحدة كانت عيناها مليئتين بالدموع وجاء أشراق وجهها المفاجئ فأصبح المشهد جميلا، أخاذاً اشبه ما يكون بصحو أطل بعد ليلة ممطرة .
وفي حين كان الثوب يرقص علي ذراعي المرأة كنت أنا في طريقي الي البيت، احمل للمرأة الباكية التي تنتظرني مالاً وشبعا وشيئا من الاسى المر وحكاية جديدة عن ثوب زفاف ابيض ذهب ليعيش عهدا جديد او لينسج لاثنين شابين متحابين فتى وفتاة ذكريات اخرى جديدة ومفرحة